شعر
١

١٥ قصيدة

سعدي يوسف

مُعذَّبو السماء

عراةً
سنمضي إلى اللهِ
أكفانُنا دمُنا ،
ونيوبُ الكلابِ التي استذأبتْ هي كافورُنا

الزنزانة التي كانت مغلقةً ، كهربائياً ، انفتحتْ فجأةً ، لتجيءَ المُجنّدةُ . عيوننا المتورِّمةُ لم تتبيّنها واضحةً . ربما لأنها من عالمٍ غامضٍ . لم تقل المجنّدةُ شيئاً . كانت تسحبُ وراءها ، مثل حصيرٍ مهتريءٍ ، الجسدَ المدمّى لشقيقي .

سعدي يوسف، شاعر عراقي مقيم في لندن

وحفاةً
سـنمشـي إلى الله
أقدامُـنا أنتنتْ بالقَروحِ
وأطرافُـنا أُثخِنَتْ بالجـروحِ

هل الأميركيون مسيحيون ؟ ليس لدينا في الزنزانة ما نمسحُ به الجسدَ المسـجى .
ليس في الزنزانة إلاّ دمُنا المتخثِّر في دمنا ، وهذه الرائحة الآتية من قارة المسالخ .
لن تدخلَ الملائكةُ هنا . الهواءُ يضطربُ . إنها أجنحةُ خفافيشِ الجحيم . الهواءُ هامدٌ .

انتظرناكَ ، يا رَبُّ
كانت زنازينُنا أمس مفتوحةً
– نحن كنّا على أرضِها هامدينَ –
ولم تأتِ يا ربُّ

لكننا في الطريق إليك . سنعرفُ السبيلَ إليكَ حتى لو خذلتَنا . نحن أبناؤكَ الموتى
أعْلَنّا قيامتنا . قُلْ لأنبيائكَ أن يفتحوا لنا الأبوابَ ، أبوابَ الزنازين والفراديسِ .
قُلْ لهم إننا آتون . صعيداً طيِّباً تيَمَّمْنا . الملائكةُ تعرفنا واحداً واحداً
لندن ٢٠٠٤/٥/١٠

غارةٌ جويّة

في الضاحية القصوى ، حيث أُقيمُ بعـيداً عن رئةِ الضَّبُعِ ، اهتَزّتْ
أشجارُ الدّغْـلِ وئيداً . أسـرعَ طيرٌ يعـبرُ نافذةَ المطبخِ . قررتُ الليـلة
أن أتركَ تدخينَي . لكني (شأنَ قراراتي الأخرى) سـوف أدخِّنُ حتماً .
أشجارُ الدّغْـلِ تُطَوّحُ أوراقاً وأماليدَ . البرقُ (أراهُ الآنَ لـمَرّته الأولى)
هل كانَ حقيقةَ بَرقٍ؟ لكنّ الرعدَ أتى . الريحُ تسـوقُ غيوماً سـوداً ،
وحبالاً من مـاءٍ ، وروائحَ ليستْ من هذي الأرضِ . أهرولُ ، أهبِطُ درَجات
السُّلَّمِ ، ملدوغاً ، كي أفتحَ بابي للريحِ وللمطرِ الساحةُ (أعني موقفَ
سياراتِ الضّيعةِ) تلمعُ تحتَ سـماءٍ مثقلةٍ بالنُّعَمى . أهتز أنا ، وحدي،
للرعد ...
وأختَضُّ

وأختَضُّ
وأختَضُّ
.....
.....
.....

وفي وطني الآنَ ، الرعدُ :
الطيَـرانُ الأميركيُّ
وبالحاوية العنقودية (كنّـا شاهدناها في بيروتَ زماناً)
ينـقَضُّ على الكوفةِ
والفلّوجةِ
والنجف
الطّيَـرانُ الأميركيُّ
الليلة ينـقَضُّ عليَّ الآنَ

لندن ٢٠٠٤/٤/٢٧

أيُّهذا الحنينُ ، يا عدوِّي

لي ثلاثون عاماً معكْ
نلتقي مثل لصّين في رحلةٍ لم يُلِمّا بكل تفاصيلها ؛
عرباتُ القطار
تتناقصُ عبرَ المحطاتِ
والضوءُ يشحبُ ،
لكنّ مقعدك الخشبيّ الذي ظلَّ يَشغلُ كلَّ القطارات ما زال محتفظاً بثوابتهِ
بحزوزِ السنين
بالرسومِ الطباشيرِ
بالكامرات التي لَم يعد أحدٌ يتذكر أسماءَها
بالوجوهِ
وبالشجرِ النائم الآنَ تحت الترابِ
استرقْتُ إليك النظرْ
لحظةً
ثم أسرعتُ ألهثُ نحو المقاعدِ في العرباتِ الأخيرةِ ،
مبتعداً عنكَ

.....
.....
.....

قلتُ : الطريقُ طويلُ ؛
وأخرجتُ من كيسيَ الخيشِ خبزاً وقطعة جبنٍ
وإذْ بي أراك
تقاسمني الخبزَ والجبنَ !
كيفَ انتهيتَ إليَّ ؟
وكيف انقضضْتَ عليَّ كما يفعلُ الصقرُ ؟
فاسمعْ :

أنا لم أقطعْ عشراتِ الآلافِ من الأميالِ
ولم أطَّوَّفْ في عشراتِ البلدانِ
ولم أتعرَّفْ آلافَ الأغصانِ
لكي تسلبني أنتَ الكنـزَ
وتحبسني في زاويةٍ !
فاترك المقعدَ الآنَ ، واهبطْ !
قطاري سيسـرعُ بي ، بعد هذي المحطةِ
فاهبِطْ
ودعنيَ أمضي إلى حيثُ لن يتوقفَ يوماً قطارْ

لندن ٢٠٠٣/١٢/١١

الأشـياءُ تتـحرّك

الغيومُ الصَّـدفْ
والغصونُ الزّمُـرّدُ ، والزنبقاتُ ، وأزهارُ «لا تنسَـني»
والنوافذُ
والمُصطلَى

والستائرُ
والعشْبُ بين شقوقِ المَمَرِّ
وأعشاشُ نيسانَ
حتى المحطّةُ في المُنتأى –
كلُّها ، الآنَ ، لا تتحرّكُ
.....
.....
.....
لكنْ (أتلمحُ أُذُنَي حصانٍ على المَرْجِ) ؟
أنصتْ !
أترتشفُ الوشوشاتِ الشفيفة ؟
هل تسمعُ الماءَ في القصبِ ؟
الريشَ ، في هَبّةٍ من طيورِ البُحيرةِ ؟
والنجمَ حينَ الخَفاءُ ؟
المُويجاتِ في القاعِ ، حيثُ المَحارُ ؟

البحيرةُ موسوقةٌ بحقائبها الآنَ
تنتظرُ الليلَ

في الليلِ ، آنَ ننامُ جميعاً ، تسافرُ هذي البحيرةُ
كي تبلغَ البحرَ
في لحظةٍ
وتفارقنا – بين جدراننا – نائمين

لندن ٢/٥/٢٠٠٤

عراقيّون أحرارٌ

لن نرفعَ أيدِينا في الساحةِ

حتى لو كانت أيدينا لا تحملُ أسلحةً
نحن سلالةُ أفعى الماء الأول
نحن سلالةُ مَن عبدوا ثيراناً تحملُ أجنحةً
وسُلالةُ مَن عبدوا نيراناً في قُنَنِ الثلجِ ،
ولم نرفعْ أيدينا إلاّ للأحَدِ الواحدِ
حينَ وهبْناهُ نُبُوَّتَنا
نحن سلالةُ مَنْ رفضوا عرباتِ الرومانِ فما انقرَضوا .
لن نرفعَ أيدينا في الساحةِ
لن نرفعَ أيدِينا في الساحةِ
لن نرفعَ أيدِينا

لندن ٢٠٠٤/٤/١٥

زاويةٌ للنظر

«إلى لـويز وارِن» Louise Warren

أبصِرْ ما ترسُمُه أنتَ !
ودقِّقْ في ما ترسمُهُ
إنكَ لن تغتفرَ الخطأ
الخطأَ المتعثِّرَ
واللونَ الأصليَّ
وما يتبدّى حول إطارِ اللوحةِ من خَلَلٍ
(لستَ مَن اختلقَ الخلَلَ)
المشهدُ كانَ ، كما كانَ ، وفي أيّ مكانٍ
لكنكَ منذورٌ كي تلعبَ بالأوراقِ
ملاييــنَ
(أتحسَبُها مَحْضَ ثلاثٍ ؟)
ستُغَيِّرُ هذا المشهدَ
كي تبصرَ ما ترسمُه أنتَ
فيغدو ما ترسمُهُ أنتَ : الحَقّ

لندن ٢٠٠٤/٥/٧

حـياةٌ جـامدةٌ

تنحني النبتةُ المنزليّةُ تحت الهواءِ الثقيل ...
على الطاولةْ
بين منفضةٍ للسجائرِ ملأى وكيسِ دخانٍ
قوائمُ للغاز والكهرباءِ ،
السفينةُ تبحرُ في الحائطِ
الطيرُ ينقرُ رأسَ المُغَنِّي (غلاف اسطوانةْ) .
غرفتي تتضايقُ مني
تضيقُ
السفينةُ غابت عن المشهدِ
الليلُ يجلسُ في الركنِ
مُلتَحِفاً بالهواء الثّخين .

لندن ١/٢/ ٢٠٠٤

الليلة لن أنتظرَ شيئاً

أنا لن أنتظرَ الليلة شيئاً :
هو ذا القطنُ الشتائيُّ يغطي ساحة القريةِ
والطيرُ الذي ظلَّ يزورُ الكستناءَ ارتحلَ
الأشجارُ لا تهتزُّ ،
والنافذةُ الوسطى التي تمنحُني إطلالة البُرجِ ، تغيمُ
....
....
....
الآنَ تأتي عدنٌ بالبحرِ
تأتي عدنٌ بالسَّيسَبانِ الحُرِّ والأسماكِ
تأتي بالأفاويه
وتأتيني بما يجعَلُ هذا الكونَ ملتقاً على جمرتهِ ؛

أنـظرُ في المـرآةِ :
كانَ الشخصُ يدعوني إلى شـاطئهِ
مثلَ الغريـق

لندن ٢٠٠٤/١/٣١

الاستباحة

السمتيّـاتُ الأميركية تقصفُ أحيا ءَ الفقرا ءْ
والصحفُ المأجورةُ
في بغدادَ
تُـحَدِّثُ قُـرّا ءً أشباحاً عن أرضٍ سوف تكونُ سـما ءْ
|||
هذا الطاعونُ
هذا الوحشُ المملوءُ دمامِلَ
هذا الخِرّيتُ الفولاذُ
وهذا الشاربُ كأسَ دمٍ طافحةً مـمّنْ قُصِـدوا ،
هذا المتدرِّعُ بالقتلى
هذا المتذرِّعُ باللاشـيءْ
القاتلُ
والماثلُ في الساحات
هذا المنتقم ، الليلةَ والليلة ، من بغداد
هذا الراحلُ حتماً
سنشيِّـعُـهُ يوماً بقناديل البصَـقات .
|||
السمتيّاتُ الأميركيةُ تقصف أحيا ءَ الفقرا ء
والصحفُ المأجورةُ
في بغدادَ
تُـحَدِّثُ قُـرّا ءً أشباحاً
عن أرضٍ سوف تكونُ سـما ءْ .

لندن ٢٠٠٤/٤/٥

من هواجسِ رجُلٍ ، سـنة ٢٠٠٠ ق.م

هبطَ الليلُ ، سـريعاً هذا اليومَ ، لأنّ الفصلَ تبدّلَ ، قالوا...
(يعرفُ هذا ، الكاهنُ)
لكني لا أعرفُ ماذا يعني هذا...
لن تختلفَ الأشياءُ كثيراً :
طسْتُ الخبزِ السائلِ في الحانةِ ،
والعسسُ اللّيليّ بأوّلِ منعطَفٍ بعد الحانةِ
والبنتُ
ستُدخلُني مخدعَها حينَ تُـلَـوِّحُ بالـقنديلِ الزّيتِ من الكُـوّةِ ...
لم اقصدْ أن أتحدّثَ عمّا لم يختلف اليومَ عن الأمسِ ،
فأرجو أن تعذرني
كنتُ أحاولُ أن أسألَ ، سِـرّاً... (أنتَ صديقي) :
الشعراءُ ، لماذا صمتوا ؟
وإلى أين التفتوا ؟
ما عدتُ أراهم في الحانةِ يرتجلونَ ويصطخبونَ...
صحيحٌ أنّ غزاةً دخلوا سـومرَ ؛
أن المعبدَ يَستبدلُ بالتمثال تماثيلَ ،
وأنّ بيوتَ الكُـتّـابِ أتاها كُـتّـابٌ جُدُدٌ...
وإلخ...
لكنْ ، أينَ الشعراءُ ؟
يقالُ (ولستُ أُصَـدِّقُ) إن كثيراً منهم يرتجلون الآنَ
قصائدَ في مدحِ الـتّـجّارِ الأشـرارِ
وضُبّـاطِ الحاميةِ الأكديّـةِ ...
(إنّ الليلَ عجيبٌ !)
عذراً...
قنديلُ الزيتِ يُـلَـوِّحُ في الكوّةِ ،
عذراً...

لندن ٢٠٠٤/٤/٢٩

إذهَبْ وقُلْها للجبل

كيف؟
أنت الساحةُ الآن ، ولا تدري بما يَحدُثُ في الساحةِ ؟
ما أسهلَ أنْ تغمضَ عينيكَ...
ولكنّ الرصاصَ انطلقَ ؛
الدبابةُ «إبراهيمُ» في المفترَقِ الأولِ
والرشّاشُ لا يهدأُ...
ما كنتَ بعيداً ، حين كانت «ساحة التحرير» تلتَمُّ على أشلائها :
الدبابةُ «ابراهيم» في المفترق الأولِ
والسمْتيّةُ السوداءُ ، آباتشي ، علَى رأسكَ
والبرجُ يدورُ ...
انتبه العصفورُ
والمقتولُ
والحائطُ ،
لكنك لم تنتبه
الشمسُ على رَأسكَ تحمـرُّ ، ولم تنتبهِ
الساحةُ بارودُ من الأعلى
دمٌ إهْـريقَ في الأسفلِ
طابورٌ من النملِ
ولم تنتبه ...
الليلة ، يَأتي طائفٌ من آخرِ القَصْباء .
يأتينا الشِقِرّاقُ بما فاهت به جنّيةُ الهورِ
وتأتي عبرَ مجرى المـاء أفراسُ النبـيّ .
الطينُ من زقّـورةِ المَنأى سيـأتي
والخُلاسيّونَ والجرحى ، وما تحمله الفاختةُ
الأولى ، وما ينفثه الثورُ السـماويُّ ،
ويأتينا عليٌّ بنُ محمد...
هذه الأرضُ لنا
نحن ، بَـرأْناها من الماء
وأعلَيْنا على مضطَرَبٍ من طينها ، سقفَ السماءِ
النخلَ

والذاكرةَ الأولى
وكنّا أولَ الأسلافِ ، والموتى بها
والقادمين ؛
الأرضُ لن تتركنا
حتى وإنْ كنّـا تركناها
ستُرخي هذه الأرضُ ، لنا ، الـمَنْجاةَ ، مَرْساً من حريرِ الشَّعرِ
مجدولاً ،
ستعطينا ، أخيراً ، اسمَها :
ويْـلِي على الشطآنْ
ويلي على أهلِ الحِمى والشانْ
ويلي على أهلي
ويلي على جسر المسيّبِ
والزبيرِ
وقريتي حمدان
ويلي على ظلّي الذي يمحوه أمريكانْ
كيف؟
أنت الساحةُ الآنَ
فكُنْ أدرى بمن أنتَ
وكنْ أدرى بما تفعلُ
فالساحةُ ـ حتى لو تناستْ اسمَها أو غفلتْ عنه ـ هي الساحةُ
أنت الآنَ معنىً ؛
لا تحاورْ
ولْتَدَعْ مَن خاننا يأكلْ طويلاً شجرَ الزقّـومِ
واثبُتْ
لا تحاورْ :
هذه الأرضُ لنا
هذه الأرضُ لنا
هذه الأرضُ لنا
منذُ بَرأْناها من الماءِ
وأعلَينا ، على مضطَرَبٍ من طينِها ، سقفَ السماء

٢٠٠٣/٦/٢١ Medellin - Colombia

طبيعةٌ غيرُ ميِّتةٍ

يـمُرُّ «أبو الخصيب»
كما يـمُـرُّ الضَّبابُ ، الصبحَ ، أزرقَ
كان جسـرٌ من الأخشابِ ينضحُ بالرطوبةِ ...
كانَ نخلٌ
ولبلابٌ
وكانت في السـماءِ نعومةُ النُّـعمى ؛
سأسـألُ عنكَ يا ولدي
إذا ما غامت الأشـياءُ ،
أسـألُ عنكَ
أسـألُ عنكَ...
لكنني أراكَ الآنَ :
يوماً بعدَ يومٍ ، ليلةً في إثْـرِ أخرى
فانتظِـرْني ، يا بُـنَـيَّ ،
سنلتقي ، حيثُ الضَّبابُ ، الصبحَ ، أزرق ...

لندن ٢٠٠٤/٢/١

لو كان الصبحُ جميلاً

لو كان الصبح جميلاً ، مثلَ حذاءِ الـ Marks & Spencer
أو مثلَ قميصكِ ليلةَ أمسِ الأوّلِ
لو كان الصبحُ جميلاً
لمضيتُ عميقاً في ممشى الغابةِ
أبحثُ في الورقِ المُسـّاقِطِ عن أزهارٍ نادرةٍ وبُحيراتٍ وعرائسِ ماءٍ ،
وأيائلَ
(يسخرُ مني جاك كيرواك حتماً)!
لكنني سأُكرِّرُ :
لو كان الصبحُ جميلاً

.....
.....
.....
ما أيسـرَ ما تطلبه من هذا العالَـمِ !
ما أصعبَ ما تطلبه من هذا العالَـمْ !

لندن ٢٠٠٤/٢/٢٥

مسـتعـمَـرةٌ رومانيـّـةٌ

كنّا يونانيينَ ، منازلُنا عند تخومِ الصحراءِ العربيةِ ؛
لكنّ لنا نهرين
وبضعَ قرىً ، ومزارعَ نسقيها من أمواهِ النهرَين
وكان لنا أيضاً شعراءُ يُقيمونَ الأوزانَ
ويحكون عن المرأةِ
والأزهارِ ،
وفي قِنّسْرِينَ بنينا مدرسةً للفلسفةِ
(الأمرُ الأغربُ أنّ تلاميذَ أرسطو يأتون إلينا أحياناً
ليقولوا شيئاً عن آخرِ مخطوطات أثينا)
لكنّا يونانيونَ وفلاّحونَ
فلم نصنع أسلحةً
لم نعرف كيف نُعِـدُّ الفتيانَ جنوداً
(ما قال تلاميذُ أرسطو إن مُعلِّمهم كان يدرِّبُ ابنَ فيليب المقدونيّ على غزو المدنِ)!
الدنيا تتغيّـرُ
قالوا
حتى الشمسُ ستشرقُ من جهة الغربِ
.....
.....
.....
أنا أهذي الآنَ ، وحيداً ، في حانة كِرياكوسَ بـ» صَيدا «
كوبُ نبيذي الفخّـارُ اسْـوَدَّ

وشَـعري ابْيَـضّ
ولا أعرفُ مَـن أُخبرُهُ – حتى سِـرّاً – أنّ الرومان نقَـوني
حين غدَونا مستعمرةً ؛
لكني لا أستبعدُ أن يعرفَ كرياكوسُ الأمرَ .
الدنيا تتغيّـرُ
قالوا ...

لندن ٢٠٠٤/٣/٧

هذا المســاءَ سأكونُ سـعيداً

شمسُ الضحى تملأُ العشبَ الفتيَّ ، وفي القواربِ اصّاعَدَتْ
تلكَ الوشائعُ أشتاتاً
وأبخرةً من المواقد ؛
كان الكونُ يغسلُ بالشمسِ الرطوبة
أيّاماً تَـهَدّدَنا ثلجٌ
وأغرقَ أعشابَ الحديقةِ غيثٌ سـابغٌ .
رئتي نقيّـةٌ ،
ودخانُ الموقد احتفلتْ به الرياحُ
وأكوابي مهـيَّـأةٌ
مع النبيذِ الـمُصَفّى الـمُصطفى
وعلى زجاجِ نافذتي
بُـقْـيا ندىً ؛
أيُّ نُعْمى حينَ تَطْرقُ بابَ البيتِ
أغنيـةٌ مع المسـاءِ ؟
....
....
....
أهذي ليلـتي العَجَبُ ؟

لندن ٢٠٠٤/١/٩